

قراءة نقدية في الوثائق الصادرة عن المكتب العربي بالجزائر إبان القرن 19.

د.ة فاطمة حباش

جامعة ابن خلدون _ تيارت _

منذ نزول فرنسا بالجزائر وضعت نصب عينها ضرورة الاحتلال الشامل والكامل للجزائر، وتثبت وجودها، ولأجل ذلك تبنت سياسة استعمارية محكمة ومتكاملة، تشمل مختلف الجوانب، سمحت لها في نهاية المطاف تحقيق السيطرة الشاملة والتامة على الجزائر كإطار جغرافي وبشري، ومن بين العناصر الأساسية التي احتوتها هذه السياسة نجد الجانب الإداري حيث أوجدت نظاما إداريا موجه للجزائريين تم ترسيمه في سنة 1844 عرف بنظام المكاتب العربية¹.

أصبحت هذه المؤسسة الوسيط الفعلي بين السلطة الاستعمارية والجزائريين، مكلفة بالمراقبة والمتابعة² الأمر الذي جعلها كهيئة إدارية يصدر عنها كم هائل ومعتبر من التقارير المختلفة على فترات ومدد متنوعة، حاملة بين طياتها مادة علمية خصبة يمكن توظيفها في عملية الكتابة التاريخية، ونؤرخ بها لمرحلة من تاريخ الجزائر.

من هنا إذن تتجلى أهميتها ووجوب إخضاعها لدراسة نقدية بغية معرفة مضمونها وطابع معلوماتها، إضافة إلى تحديد قيمتها العلمية، وبالنسبة للإشكالية التي انطلقت منها لمعالجة الموضوع مفادها: "ما مدى مساهمة تقارير المكاتب العربية كوثائق أرشيفية في تدوين تاريخ الجزائر إبان الاحتلال مع فترة القرن 19"

للإجابة عن هذه الإشكالية انطلقت من مرحلة المعاينة المباشرة لمختلف الوثائق الصادرة عن مؤسسة المكتب العربي، وتسجيل أهم ما شملته من معلومات ثم معالجة الموضوع وفق خطة شملت العناصر التالية:

_ لمحة عن نظام المكاتب العربية

_ وصف وثائق المكتب العربي

_ القيمة والأهمية العلمية.

1_لمحة عن نظام المكاتب العربية:

لقد ظل الاستعمار يتخبط في محاولاته لإيجاد النظام المناسب للجزائر بعد الاحتلال خاصة بعدما واجهتهم مشكلة اللغة وعادات وتقاليد المجتمع، وكذا الطبيعة الجغرافية، إضافة إلى أكبر عائق المقاومة العسكرية القوية من قبل سكان الجزائر بقيادة زعماء القبائل ومرابطيها، كلما حاولوا التوسع والتوغل في المناطق³.

لقد بادر الفرنسيون منذ البداية في محاولات متكررة في إيجاد العنصر المكمل لنشاط الجيش لتحقيق السيطرة، وتجسد في إيجاد إدارة أهلية تركز على موظفين من أصول جزائرية، غير أنها لم تكن ثابتة، وتميزت بالبعثرة في تسميتها ومبادئها التأسيسية إلى غاية مطلع فترة الأربعينات مع اعتلاء الجنرال بيجو⁴ منصب الحاكم العام في 22/2/1841⁵، أين قدم وهو مقتنع بضرورة تحقيق الاحتلال الشامل عن طريق الخضوع التام للعرب، والاستيطان العسكري، وتنفيذ الحرب الابادية ضد كل من يحمل لواء المقاومة ضد فرنسا⁶، في مقدمتهم الأمير عبد القادر، إذن تبني وسائل وطرق عسكرية وسياسية، منها نظام إداري يتمشى والتنشئة العربية، يسمح له بمراقبة الأهالي، ووضعهم تحت المجهر وفق مبدأ "حكم العرب بالعرب"⁷.

إذن بدأ الجنرال بيجو في نظام التهدة عن طريق الاستعانة بقيادات وزعامات محلية سخرها بعد عملية التدجين في مراقبة القبائل، وجمع المعلومات حول طبائع السكان وتحركاتهم، ومعرفة الجماعات والأفراد المتعاونة مع المقاومة الشعبية⁸، ولقد عبر عن ذلك قائلا: "...إن استعانتنا بهؤلاء الرؤساء والعائلات الكبيرة تعد وسيلة ناجحة لتعيين مواقع الثوار وبذلك نتمكن من حصارهم....وكذلك هذه الوسيلة تدخل في إطار المحافظة على الأمن العام والمحافظة على ازدهار التجارة..."⁹.

لتحقيق هذا المشروع وتدجين الزعامات الأهلية قام أولا بإعادة بعث وإحياء مديرية الشؤون العربية، ووضع على رأسها الجنرال أوجين دوماس¹⁰ في 16/8/1841، تبعه بسنوات قليلة إحداث نظام إداري أهلي محكم بمبادئه ومهامه تم الاعلان عنه عبر مرسوم أصدره في 1/2/1844 يقضي بإنشاء نظام

المكاتب العربية الذي يسمح استغلال كل إمكانيات الجزائريين لصالح المشروع الاستعماري¹¹، لأنه من غير المعقول أن يكون نظاما يسعى من خلاله ترقية وضع الجزائريين وتلبية حاجاتهم بل على العكس نظام سيضمن لها البقاء الدائم، وتحقق من خلالها أهدافها الاستعمارية بالجزائر، والتي يمكن استخلاصها من خلال المهام والصلاحيات التي خولت له رسميا ضمن المرسوم وهي:

- تحقيق الاستعمار وتثبيته.
- إخضاع القبائل والسيطرة عليها، إضافة إلى مراقبة المرابطين وشيوخ الزوايا.
- جمع المعلومات الجغرافية والسياسية والتاريخية والاجتماعية تسهila للاحتلال.
- إقرار الأمن والاستقرار تنشيطا للاستيطان والتجارة¹².
- تنظيم الاستيطان عن طريق إحصاء الأراضي والإشراف على الأشغال العمومية.
- تحصيل الضرائب وفك النزاعات القضائية والإشراف على التعليم¹³.

أما تنظيمه فقد اتخذ شكلا هرميا تحت إشراف السلطة العليا، في قمته نجد المكتب السياسي الذي يخضع لسلطة الحاكم العام، يستقبل مختلف التقارير الواردة من المقاطعات إلى جانب جمع وحفظ الأرشيف وإعداد بدوره تقارير وبيانات يرفعها إلى وزارة الحرب. يتفرع عنه حسب المقاطعات إلى ثلاث إدارات إقليمية تحت سلطة القائد العلى للمقاطعة مكلفة بإعداد الأوامر وإرسالها، ووضع تقارير عامة في مختلف المجالات عن مقاطعتهم¹⁴.

تأتي بعد ذلك بشكل نظامي مكاتب عربية موزعة على مختلف المناطق في شكلين مكاتب الدرجة الأولى نجدها على مستوى القسمات تحت إمرة القائد الأعلى، ومكاتب من الدرجة الثانية تنتشر بالدوائر والملاحق المتواجدة بالمناطق البعيدة، استدعت الحاجة بغية ضمان السيطرة ووضع بها المكاتب¹⁵.

وبخصوص موظفيه فنجد نوعين: الموظفين الفرنسيين وهم عسكريون انتدبوا من فيالقهم لمهام إدارية، يجيدون اللغة العربية إلى حد ما، منهم رئيس المكتب وأعوانه، إضافة للمحاسب والطبيب¹⁶. أما الموظفين الجزائريين فهم في الأصل تلك الزعامات الأهلية من زعماء القبائل المنظمين وفق مراتب تدريجية، ويحملون القابا مختلفة من خلفاء، قياد، وأغوات¹⁷.

2_ وصف الوثائق:

تصنف التقارير الصادرة عن مختلف هيئات الادارة الأهلية وتحديدًا المكاتب العربية بالمركز الوطني للأرشيف ماوراء البحار بأكسبروفنس، منظمة ضمن رصيد الحكومة العامة للجزائر في ترتيب منفرد مخصص للمكاتب العربية على مستوى الجزائر، ومقسمة إلى ثلاث سلاسل حسب عدد المقاطعات، فأما السلسلة "J" خاصة بالمكاتب العربية للقطاع الوهراني، والسلسلة "I" مخصصة لمكاتب مقاطعة الجزائر، فحين السلسلة "K" تخص المكاتب العربية لمقاطعة قسنطينة.

تنقسم كل سلسلة رئيسية إلى مجموعة سلاسل ثانوية حسب قسّمات كل مقاطعة، ودوائر كل قسمة في شكل تراتبي هرمي، وكنموذج على ذلك نجد سلسلة مقاطعة وهران تحمل سلسلة رقمها "1J" تلها سلسلة أحد قسّماتها معسكر تحت رقم "20J"، أما الدوائر فنجد مثلاً سلسلة "23J" لدائرة جيرفيل، وسلسلة "26J" لدائرة تيارت... إلخ¹⁸.

ضمت هذه السلاسل وثائقاً مصنفة تراتبياً إلى محاور، وكل محور يخص أحد أدوار ومهام المكاتب العربية في عملية الاحتلال بالجزائر، ويمكن حصرها بالذكر تدريجياً كما يلي:

_ المراسلات: تشمل كل المراسلات الصادرة عن المكتب العربي للدائرة أو مكتب القسمة أو إلى مديرية شؤون الأهالي بالمقاطعة ثم إلى المكتب السياسي، وعلى مضمونها فهي عبارة إما مراسلات عامة أو مراسلات الضباط العسكريين، ومراسلات خاصة بالفرق العسكرية وقضية تموينها وتسليحها، إضافة إلى قرارات ومراسيم التعينات والترقيات العسكرية.

نجد ضمن المراسلات تقارير دورية من نصف شهرية إلى شهرية، ففصلية، فسنوية، كل واحدة على حدى ضمت معلومات مختلفة حول أهم الأحداث السياسية المحلية التي تخص الثورات، والحملات العسكرية التأديبية، تراجع لشخصيات ذات نفوذ، مسألة الأملاك والاستيطان، إلى جانب أمور التجارة والأسواق.

_ الشخصيات والقادة: تخص كل ما يتعلق بالضباط والموظفين، ومسألة تعيينهم وعزلهم، إضافة إلى قضايا الجند، والسجن، والشرطة.

_ إحصائيات ومعلومات: تضم مختلف المعلومات والأخبار التي تخص الثورات، وكذا التعينات الادارية، إلى جانب إحصائيات المتعلقة بمسألة الأراضي والأملك.

_ الادارة والمحاسبة: فيها نجد مختلف الوثائق التي تعنى بالاستيطان ومختلف مشاريعه الاستثمارية.

لابد من الاشارة إلى أن مختلف التقارير ترد بشكل تراتبي هرمي وفق التنظيم الإداري لنظام المكاتب العربية لكن هناك تباين في محتواها بحيث التقارير الفصلية والسادسية، وتبعاً لمهام المكتب العربي، نجد تنوع في المعلومات ذات طابع اقتصادي اجتماعي وثقافي وسياسي، تخضع لمتغيرات دورية من منطلق طبيعتها فالنمو الديمغرافي والاحصاء القضائي والتعليمي وتقييم الانتاج الزراعي والتجاري في نمو وتغير مستمر. أما التقارير السنوية فمضمونها سياسي بشكل مطلق يتم التركيز فيها على سرد الوقائع والأحداث السياسية والعمليات العسكرية، وحتى أحداث الصراعات والخلافات التي تقع بين الأفراد أو بين الأعراش بشكل مفصل في تقرير عام.

كما يرد في التقارير مراسلات حول الزعامات الأهلية تخص تعييناتهم أو عزلهم من المناصب مع ذكر الأسباب في جدول يرد فيه رأي رئيس المكتب العربي والقائد الأعلى للدائرة والمقاطعة.

_ نلمس تفصيل من خلال المتابعة الصحية، وقضية الجرائم بذكر أسبابها وعقوبتها، إضافة إلى عرض أهم الأشغال العمومية من فتح للطرق وحفر الأبار وبناء للسدود وإنشاء المرافق والمباني دعماً للاستيطان.

3_ القيمة والفائدة العلمية للوثائق:

تكمن الأهمية العلمية للوثائق في المحتوى الذي تتوفر عليه، والذي يمكن استغلاله في الكتابة التاريخية، ومعالجة عدة جوانب من تاريخ الجزائر إبان الفترة الاستعمارية وخاصة خلال القرن 19. فالاطلاع المباشر على الوثائق الصادرة عن المكتب سواء في شكل تقارير نصف شهرية أو شهرية وفصلية وسداسية وحتى

سنوية أو المراسلات الصادرة عن مختلف عناصره من الموظفين فرنسيين أو زعامات أهلية. إذن فهي تحمل في طياتها إجمالاً كما هائلاً من المعلومات المتنوعة التي يمكن استنباطها في الجانب السياسي أو العسكري أو الاجتماعي، فهي توفر لنا حقائق تاريخية واضحة المعالم تعطي صورة واضحة عن السياسية الاستعمارية.

كما أن قيمتها في كونها تسمح لنا التأكد من ما ورد في وثائق جهات أخرى للهيئة حول الاحتلال، وإحقاق الحقيقة التاريخية ولو نسبياً بواسطة المقارنة.

استخلاص خصوصية الاحتلال وأساليب التعامل مع الجزائريين عن طريق المكاتب العربية بمختلف المناطق، أي هنا ستكون الصورة أوضح على اعتبار هذا الجهاز الأكثر اتصالاً واحتكاكاً بالجزائريين، فرؤسائه وأعاونهم يجيدون اللغة العربية، وهم في اتصال يومي يستمعون لشكاويهم، ويرصدون أخبارهم، ويستفيدون منهم في معلومات تسمح لهم اكتشاف أسرار وخبايا المجتمع الجزائري، وبالتالي إيجاد الوسائل الجيدة للسيطرة.

في الأخير تعتبر تقارير المكتب العربي بمثابة الوثائق المهمة للقيام بدراسات تاريخية ذات أنماط مختلفة سواء بيوغرافية، منغرافية، إحصائية في كل الجوانب من استيطان ودراسات اجتماعية، ثقافية حول الزوايا والمرابطين والتعليم العربي.

الإحالات:

1_ André lithtenberger. Bugeaud. Polon. 1931. P. 120.

فاطمة حباش. المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844- 1870). إشراف عبد المجيد بن نعمة. كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية. جامعة وهران. 2013/2014. ص. 57.

2_ نفسه. ص. 58.

3_ Roger Germain. La politique indigène du Bugeaud. Edition larose. Paris. 1955. P202.

_ Albert Ringel. Les Bureaux arabes et les cercles militaires de galliéni. Emil larose. Paris. Paris. 1903. P. 22.

4_ توماس روبرت بيجو دولا بيكونري من مواليد أكتوبر 1784 بمدينة ليمونج، ينحدر من أسرة ذات أصول إيرلندية، درس التاريخ والجغرافيا، انضم إلى الجيش سنة 1804 ضمن صفوف الحرس الإمبراطوري، قدم إلى الجزائر سنة 1836 وشارك في محاربة الأمير عبد القادر وأشرف على إبرام معاهدة تافنة مع الأمير سنة 1837، عين حاكماً عاماً على الجزائر في 12/ 1840 إلى غاية 1848. ينظر: الغالي غربي وآخرون. العدوان الفرنسي على الجزائر _ الخلفيات والأبعاد. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر

1954. الجزائر. 2007. ص. 328-330.

5_ أوجدت منصب أغا العرب الذي كلف به ماري مونج ثم حمدان بن عبد الرحمان أمين السكة لمدة قصيرة، فشل في أن يقوم بمهمة الوسيط بين السلطة الفرنسية والقبائل الريفية بمنطقة متيجة، حيث رفض لكونه حضري ولا يعرف شيئا عن طبائع الريف لا عن عاداتهم ولا تقاليدهم، وبالتالي فشل في فرض سلطته وتم تعويضه بالمرباط محي الدين بن مبارك القليعي، هذا الأخير بقي مدة قصيرة في منصبه ثم تخلى عنه وانظم إلى ثوار مقاومة متيجة بعد اكتشافه النوايا الحقيقية لفرنسا الرامية إلى السيطرة والقضاء على مقاومة متيجة. ينظر: شارل أندري جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة " الغزو وبدايات الاستعمار (1827-1870). دار الأمة. الجزائر. 2008. ص. 562 /

Roger Germain. Op. Cit. P. 193. / Xavier Yacono. Les Bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'ouest du tell Algérois. Edition Larose. Paris. P. 10.

6_ شارل أندري جوليان. المرجع السابق. ص. 388. / أبو القاسم سعد الله. تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. ج 1. دار الغرب الاسلامي. لبنان. 1997. ص. 97.

7_ Albert Ringel. Op. Cit. P27.

8_ Roger Germain. Op. Cit. PP. 204-208. / Augustin Bernard. Les colonies Française " L'Algérie". Librairies Renouard. Paris. 1931. P. 65.

9_ فاطمة حباش. المرجع السابق. ص. 55.

10_ أجين دوماس هو من مواليد Delemenont بسويسرا سنة 1803، تتلمذ في الطب، لكن والده رأى وجوده في باريس غير مفيد وأجبره على الالتحاق في الفرقة الثانية للقناصلين، عين ضابط صف سنة 1827 والتحق بسان سير سنة 1829، وصل إلى الجزائر سنة 1833 تحت إشراف كلوزيل، شارك في حملتي معسكر وتلمسان، بعد معاهدة نافنة اختير من قبل بيجو ليكون ممثلا ديبلوماسيا لدى الأمير عبد القادر خلال فترة (1837-1839)، بعدها استدعي من

قبل لامورسيير إلى وهران لتولي شؤون ادارة الأهلية. ينظر: CAOM. 12X/140.Dumas.

11_ Victoire Démontés. La colonisation militaire sous Bugeaud. Imprimerie Algérienne. Alger. 1917. PP. 502-503.

12_ Charles Richard. Etude sur l'insurrection du Dahra. Typographie. Alger. 1846. P184. / Victor Foucher. Bureaux arabes en Algérie. Challamel Ainé éditeur. Paris. 1881. P22. / ABehaghel. L'Algérie. Tissier libraire édition. Alger. 1865. P336.

13_ CAOM. F80/1676. Note sur les Bureaux arabes 1847. / GGA. Recueil des actes du gouvernement de l'Algérie (1830-1854). P. 259.

14_ Roger Germain. Op. Cit. P. 261. / Xavier Yacono. Les Bureaux arabes. Documents Algériens. N= 10. 10/11/1847. P. 19.

15_ Louis Milliot. Le gouvernement de l'Algérie. T3. Publication de comité nationale métropolitaine de centenaire de l'Algérie. Alger. 1930. P. 261. / Baudicour. La guerre et le gouvernement de l'Algérie. Sagnier et Bray. Paris. 1853. PP. 546-547.

16_ فاطمة حباش. المرجع السابق. ص. 61-62.

17_ نفسه. ص. 63-64.

18_ CAOM. 1J/100. Division d'Oran. Correspondances arabes (1830- 1904).

_CAOM. 23J/10. Cercle de géryville. Rapports trimestriels (1855- 1893). _CAOM. Cercle de Tiaret. Rapports annuels (1851- 1893).